بسم الله الرحمن الرحيم



اللقاء الإسلامي - المسيحي عن :

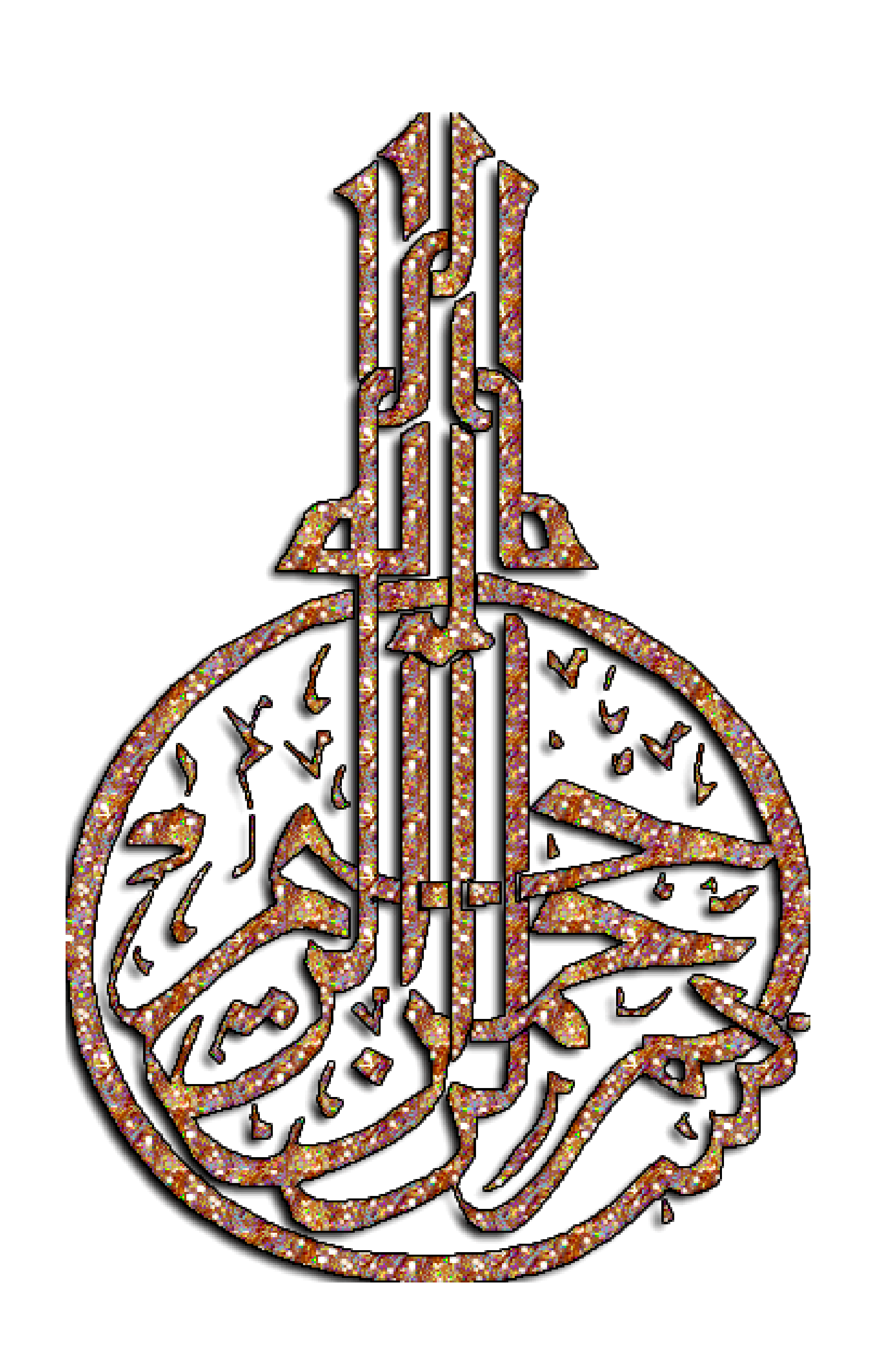
«الدين والعلمانية»

٢٩ من ذي القعدة ١٤١٧هـ - ٢ من ذي الحجة ١٤١٧هـ
٧ - ٩ نيسان (إبريل) ١٩٩٧م
عمّان - الأردن

«العلمانية من وجهة النظر الإسلامية»

الدكتور فاروق السامرائي

الهواتف ٥٥٣٩٤٧٠ ناكسبلي ٥٥٢٦٠٧١ تلكس 22363 Albait Jo العنوان البرقي : آل البيت . ص . ب ٩٥٠٣٦١ . عمان ١١١٩٥ الأردن


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

إنَّ الثورة «العلمانيَّة» التي شنَّها المجتمع الغربي على الدين، لم تكن وليدة ميل عارٍ عن المؤثرات، أو رغبة جامحة في التخلُّص منه، وإنَّما انعكاس للواقع الديني الذي انحرفت قياداته في المنهج والأداء، فتصدعت أركانه وهذا ما صرَّح به أهل ملَّته قبل غيرهم.

ودعوة العلمانيِّين إلى تجريد المجتمع العالمي من كلِّ ما يتعلَّق بالدين، قد أثقلت كاهل الأتباع، وجعلتهم يقفون على حافة الهاوية، لا بسبب إفلاسهم في عالم المادة، وإنما لفقرهم الشديد في عالم الروح والقيم والأخلاق !! فأي حضارة يمكن للعلمانية أن تحققها وهي تجتث شجرة الحياة من أصلها، لتحول دون وجود علاقة بين الخالق والمخلوق، بين الدين وأتباعه، وبين البشر ومعين حياتهم ومصدر قوتهم ؟

إن الإيمان بالله قبس من نوره الذي لا ينطفىء، يُنير للناس طريق الهداية، مهما ادلهمَّ في حياتهم ظلام الباطل ﴿ قَدْ جاءَكُم مِنَ الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يَهدي به اللهُ مَنْ اتَّبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلام، ويُخرجُهُمْ مِنَ الظلُماتِ إلى النّورِ بإذنِهِ ، ويَهديهمْ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾(١)، فهو الأنيس الذي يقيهم وحشة الأيام، والحامي لذواتهم من أن تتلاشى في رحى طاحونة الحياة. وفي ظلال منهج الله تكون الاستقامة من غير اعوجاج، والاعتدال من غير انحناء، والتوسط من غير تطرُّف، والشموخ من غير تجبُّر وغرور، فلا يُغالي أهل الإيمان عند التعالي، ولا يُسرفون عند الهبوط، فالضعيف والقويّ كلاهما قويٌّ في ظلاله ﴿ولاَ تَهِنُوا ولا تَحزَنُوا وأنتُمُ الأعلونَ إنْ كُنتُم مُؤمنينَ﴾ (٢)، والفقير والغني كلاهما عزيز تحت مظلته ﴿ولِلّهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ ولِلمُؤمنينَ ، ولكنَّ المنافقينَ لا يَعلمُونَ﴾ (٣).

وفي خضمِّ الصراع الفكري والعقائدي، لا نرغب أن نكون طرف عصا، بعد أن كان غيرنا طرفها الآخر، لنحمل الناس على عشق ماضينا، لمجرَّد أنّه ماض، وإنّما نلتمس فيهم روح العدالة والموضوعيَّة لأن يحكموا على القيم التي نتجت عنها اشراقته. فماضينا عكَسَ ممارسات المجتمع المسلم في واقع إسلامي، منطلقه منهج الله الذي ﴿لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بين يَديهِ ولا مِنْ خَلفِهِ ، تنزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ﴾ (٤)، ومستقره ممارسات البشر في ظلال المنهج، وهذا لا يعني أنَّ وجود الخلل

---

(١) المائدة : ١٥ – ١٦ .

(٢) آل عمران : ١٣٩ .

(٣) المنافقون : ٨ .

(٤) فصلت : ٤٢ .

في واقـــع النّاس (أرضية المستقر) مردّه إلى وجود نقص في أرضية المنطلق (منهج الله) إذ إنّ وجود الخلل الذي عكسته ممارسات البشر مردّه إلى ذات الممارسات . وليس في غياب المستقر تعطيل للمنطلق ، فمن سمات منهج الله الاستمرار ، ولا رادّ لأمره ﴿إنّا نحنُ نزّلنا الذكْرَ وإنّا لهُ لحافظُونَ﴾ (١) ، حيث لا عبرة بسلبيات البشر في ظلاله ، فقد يبدّل الله متى يشاء ، لأجل أن يصون دينه ومنهجه ﴿ وإنْ تتولّوا يَستَبدِلْ قوماً غَيركُمْ ثمّ لا يَكُونوا أمثالكُمْ ﴾ (٢) .

لقد حاول العلمانيّون في مجتمعنا الإسلامي قطع خيوط المودّة بين الأمّة وأصالتها ، وادّعوا أن الأخذ عن القديم يعني العيش فيه ، ولم يُفرّقوا بين فاعلية القيم الإسلامية باعتبارها خصائص ذاتية ، وبين انعكاساتها في واقع المجتمعات التي تعاملت من خلالها ، فالأول - في اعتقادنا - يمثل الأصل والمصدر ، والثاني يمثل التجربة وتراكم الخبرة والمعرفة ، ولكلّ مجتمع نصيب ممّا كسب ﴿تلك أمّةٌ قدْ خَلَتْ لها ما كَسَبتْ ولكُمْ ما كَسَبتُمْ ولا تُسئلونَ عمّا كانوا يَعملونَ﴾ (٣) على أن تبقى بصائر أهل الإيمان أداة غربلة وتمحيص .

لا نُنكر أنّ التعامل مع الماضي قد يُحدث عند الأتباع شعوراً بالصحبة وحب التقليد ، حيث ينسى المرء عصره في نشوة اشراقة ماضيه ، فتختلّ الموازنة بين ما هو واقع معايش ، وبين ما هو ماض مشرق ، ومع ذلك فإنّ موضوعية التعامل مع تراثنا الإسلامي تفرض علينا الأخذ بشمولية النظرة وعدالة المنهج ، بعيداً عن تقلبات العواطف والأمزجة .

وليس من سمات أتباع الدين الإسلامي النزعة إلى حب المخالفة لذاتها ، وإنّما هي رغبة شديدة إلى استقلاليّة الذات ، وتأكيد مقوّماتها ، وتحريرها من عبودية التبعية والتغريب ، بعيداً عن أيّ توجّه يدعو إلى وأد ماضيها - كما هي رغبة كثير من دعاة العلمنة - شريطة أن تُتلمّس الخُطى ، ببصيرة إيمانية تعتَبرُ من الماضي وتتجاوز إلى الإبداع في الحاضر ، في إطار فقه الثوابت والمتغيّرات في هذا الدين . فتكون الثوابت منابع استقاء ، وتكون المتغيّرات معينَ إبداع ، ويكون صدق التوجّه إلى الباري - سبحانه وتعالى - معين أنوار المسار ، فتجتمع للمؤمن الهدايتان ، هداية التعليم ، وهداية التوفيق ، وحينئذ تكون قد بانت معالم الطريق .

---

(١) الحجر : ٩ .

(٢) محمد : ٣٨ .

(٣) البقرة : ١٤١ .

ما هي العلمانيّة ؟

العلمانيّة ترجمة لكلمة (SECULARISM)وهي غير صحيحة ، ولا صلة لها بلفظ العلم ومشتقاته (١) . فالعلم يعُبّر عنه بكلمة "SCIENCE" والمذهب العلمي يُطلق عليه كلمة "SCIENTISM" والنسبة إلى العلم هي "SCIENTIFIC". ولا صحّة في نطقها بـ (**العَلمانيّة**) بفتح العين ، نسبة إلى العالم ، ولو صحّ ذلك لقيل (**العالمانية**) (٢) .

والمعنى الرئيس للعلمانيّة (SECULAR) هي اللادينيّة (دنيوي / غير ديني) (٣) . أمّا مذهب **العلمانيّة** (SECULARISM) : فهو وجهة النظر (أو النّظرة) التي تقول : «بأنّ الأخلاق والتربية يجب أن لا تقوم (أو تؤسس) على الدين»(٤) .

وذهب البعض إلى اعتبارها «موقفاً يفرض أن تكون المعايير التي ينبغي أن يخضع لها الإنسان في تعامله مع الإنسان وفي تنظيمه لشؤون حياته السياسية والاقتصادية والقانونية هي معايير مشتقّة من الدنيا لا من الدين ، وأنّ المعرفة المطلوبة لتنظيم شؤون الدنيا مستقلة منطقياً عن المعرفة الدينية» (٥) . وهي : حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس ، وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة ، إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها ؛ وذلك أنّه كان لدى الناس في العصور الوسطى ، رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا ، والتأمّل في الله واليوم الآخر ، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ (SECULARISM) تعرّف نفسها ، من خلال تنمية النزعة الإنسانية ، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشريّة ، وبإمكانيّة تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة . وظل الاتجاه إلى الـ (SECULARISM)يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله ، باعتبارها حركة مضادة للدين ، ومضادة للمسيحية » (٦) .

وحُدّد مفهوم العلمانية في أحد المؤتمرات الخاصة بها بأنّها : «نظرة شاملة للعالم ، أي للإنسانية جمعاء والكون كله ، تؤكد استقلاليّة العالم بكلّ مقوماته وأبعاده وقيمه تجاه الدين ومقوماته وأبعاده وقيمه . كما تعني الحياد التام للعالم تجاه الدين

---

(١) محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ، ص ٤٤٥ .

(٢) يوسف القرضاوي ، الإسلام والعلمانية ، ص ٤٨ .

(٣) قاموس المورد ، مادة : (SECULAR)، وقاموس اكسفورد .

(٤) محمد التكريتي ، نقد العلمانية ، ص ٦١ ، ٦٢ ؛ ومحمّد عمارة ، العلمانية ونهضتها الحديثة ، ص ١١ - ١٣ .

(٥) عادل ظاهر ، الإسلام والعلمانية ، الإسلام والحداثة ، ص ١٠٠ .

(٦) دائرة المعارف البريطانيّة (V.IX - P19).

والأديان المختلفة ، فهي ليست ضد الدين ولا معه ، لذلك فالعدائية للدين ليست من العلمانية بشيء ، بل هي ضد قيم العلمانية . فإذا اتخذت تاريخيًّا في بعض البلدان كفرنسا أو تركيا شكلاً عدائيًا فما كان ذلك إلاّ انحرافًا ومرضًا يمكن تسميته «العلمانوية» . (١)

ويُقصد بـ (المدرسة العلمانية) «كلّ فكر أو اتجاه أو موقف لا يعتبر الدين جزءًا من مشروعه النهضوي أو فكره السياسي ، سواء كان هذا الموقف رافضاً للدين معاديًا له ، أو كان معترفًا بالدين متقبلاً له كتراث أو كواقع تاريخي ولكن ليس له علاقة بالدولة ولا بشؤون الإنسان المدنية . فالفكر الماركسي حسب هذا التعريف فكر علماني ، ... والفكر القومي القائم على أساس استبعاد الدين سياسيًا هو فكر علماني كذلك» (٢) .

وفي ضوء المفاهيم أعلاه ، سواء كان المفهوم ضد الدين أو معاديًا له ، أو ليس ضده ولا معه ، فإن النتيجة واحدة ، هي تنحية منهج الله – جلّ شأنه – من أن يتصدر قيادة الإنسانية وفق نظمه وتشريعاته ، ولا يُمكن ضمن هذا الإطار المواءمة والتجانس بين العلمانية والإسلام في أيّ حال ؛ لأنّ مجمل حركة الإنسان المؤمن في الحياة موجهة لتحقيق عبادة الله ومرضاته ، قال تعالى : ﴿**وما خلَقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليَعبدُون**﴾ (٣) وأن تكون له وحده كما يُريد ، ليتحقق المفهوم الشامل للإسلام ، قال تعالى : (**قُل إنَّ صلاتي ونُسكي ومَحياي وَمماتي لله ربِّ العالمين لا شريكَ لهُ وبذلكَ أُمرتُ وأنا أوّلُ المسلمين**) (٤) ، وقال : ﴿**ومَنْ يَبتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فَلنْ يُقبلَ مِنهُ وهو في الآخرةِ مِنَ الخاسرينَ**﴾ (٥) .

---

(١) عقد المؤتمر العام الدائم للتيار العلماني في بيروت في خريف (١٩٨٢م) ، وعبّر عن حقيقة العلمانيّة الجديدة المتطورة حيث ضم ممثلين عن جمعيات وأحزاب وأفراد لهم عقائد دينية وسياسية مختلفة ، وفيه أصدرت «وثيقة العلمنة» التي مثّلت مشروعًا متكاملاً شمل جميع مناحي الحياة – كما يعتقدون – وجاء في المادة الأولى من هذه الوثيقة تحديد مفهوم العلمانية . (انظر : د. عاطف عليي ، من الفكر الحر إلى العلمنة ، ص ١٢٢) .

(٢) محمّد التكريتي ، نقد العلمانية ، ص ٢١ .

(٣) الذاريات : ٥٦ .

(٤) الأنعام : ١٦٢ – ١٦٣ .

(٥) آل عمران : ٨٥ .

فالإسلام سياسة إلهيّة للبشر، والانقياد لمنهج الله فيه تحقيق لحاكميته المطلقة، قال سبحانه وتعالى: ﴿أفَحكمَ الجاهليةِ يَبغُونَ، ومَنْ أحسنُ منَ اللهِ حُكماً لقومٍ يُوقنونَ﴾ (١)، وقال: ﴿وما كانَ لمؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ إذا قَضَى اللهُ ورَسولُهُ أمراً أن يَكونَ لهُمُ الخِيرة من أمرهم، ومَنْ يعصِ الله ورَسولَهُ فقد ضلَّ ضلالاً مُبيناً﴾ (٢)، وقال: ﴿إنَّما كانَ قولَ المؤمنين إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ لِيحكُمَ بَينهمْ أنْ يقولوا سَمعنا وأطَعنا وأولئكَ هُمُ المُفلحونَ﴾ (٣).

إن منهج الإسلام دستور متكامل للحياة، لا تستقيم بدونه.

تيارات الفكر العلماني

يمكن تمييز الفكر العلماني إلى تيارين أساسيين هما:

التيار الأول: الذي يرفض الدين ويحاربه، فهو لا يكتفي بإبعاد الدين عن الدولة أو السياسة فحسب، بل ويرى أنّ الدين سبب التخلف، وعائق التطور والتقدم، وحدى ببعضهم للقول بأنّ: «الدين أو التفكير الديني كان وراء نكسة حزيران» (٤).

وبالتالي يجب حسب رأيه أن نتخلص من ذلك إذا أردنا أن نحقق القوة والانتصار. وكان إبراهيم خلاص أحد الكتّاب في الصحافة العربية كتب مقالاً قبل نكسة ١٩٦٧م بشهر واحد يقول فيه: «إنّ الطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي، هي خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن أنّ الله والأديان، والاقطاع والرأسمال والاستعمار وكل القيم التي سادت ليست إلاّ دمى محنّطة في متاحف التاريخ».

التيّار الثاني: الذي يعترف بالدين ويقبل به على أن لا يكون له شأن في السياسة والحكم والتشريع والقانون، وإنّما يعتبره قضية شخصية ومسألة تاريخية. ولا يُعد حسب رأيهم - بأنه مصدر من مصادر المعرفة الإنسانية.

---

(١) المائدة: ٥٠.

(٢) الأحزاب: ٣٦.

(٣) النّور: ٥١.

(٤) صرح به مؤلف كتاب: «النقد الذاتي بعد الهزيمة» صادق جلال العظم الذي ينتسب لهذا التيار.

وفي ظلال هذا المفهوم يقرّر بعضهم بقوله : «إن رفض الدين ليس من صميم العلمانية في شيء . صحيح أنّ بعض العلمانيين رافض للدين ، ولكن المؤكد أيضاً أن كثيراً من العلمانيين متدينون ، وأنّ كثيراً من المتدينين علمانيون لأن الدين يظل محتفظاً بقداسته في كلتا الحالتين ، ولكنّه ينزه عن التدخل في الممارسات السياسية المتقلبة ، مع تنظيمه لجوانب هامة في حياة الإنسان ، كالجانب الروحي والأخلاقي» (١) .

ويبدو أنّ حدة التطرف العلماني بدأت تخف ، وتتراجع عن تطرفها ، وفي ذلك يقول الدكتور فؤاد زكريا (٢) : «والواقع أن أحداً من العلمانيين المعاصرين لا يفكر في الدعوة إلى قطع جميع الجسور مع الماضي . ربما كانت هذه الدعوة قد ظهرت لدى بعض علمانيي أوائل القرن ، أمّا في الوقت الراهن فإن الفكر العلماني لا يدير ظهره للتراث بأي معنى من المعاني» (٣) ويعتبر العلمانية بأنّها «إطار فضفاض شديد الاتساع ، فمن الممكن أن يكون هناك علماني يميني ، وعلماني يساري ، وعلماني ليبرالي وعلماني ماركسي ، وعلماني متدين ، وعلماني غير متدين » (٤).

ولا نحتاج لأن نعقب على هذا المنحى حيث اكتفينا بما أوردناه من تعليق على مفهوم العلمانية ، مبينين وجهة النظر الإسلامية في ذلك .

العلمانية في الغرب

بعد سبات طويل مظلم ، وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي فاق العالم الغربي وبدأ ثورته الفكرية متمرداً على السلطة الدينية فتبلور منهجان واضحان للمعرفة الإنسانية ، الأول غيبي روحي فرضه تطور الفكر الديني المسيحي ، والآخر واقعي تجريبي توصل إليه العقل الإنساني من جمع الخبرات العقليّة الإنسانية بعيداً عن نفوذ المنهج الأول .

وفي ظلال احتدام الصراع بين المنهجين تفجر الواقع السياسي والاجتماعي والفكري في أوروبا ، ليتمخض عنه مذاهب ومدارس منها الوضعية المنطقية ،

---

(١) فؤاد زكريا ، الصحوة الإسلامية ، ص ٥٦ ؛ ومحمّد عمارة ، العلمانيّة ونهضتها الحديثة ، ص ١٢ – ١٣ .

(٢) وهو من أبرز العلمانيين الحاملين للوائها المدافعين عنها .

(٣) فؤاد زكريا ، الصحوة الإسلامية ص ٧٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

والنفعية (البراجماتية) ، والوجودية والماركسية ، وأصبحت حضارة الغرب تستند إلى أساسين هما : الإنسان والكون، واستُبعد العنصر الغيبي استبعاداً تاماً (١) .

كانت فرنسا مسرحاً لنشوء العلمانية في الغرب ، ويعزو كثير من الكتاب والباحثين ظهور العلمانية إلى أسباب عديدة ، أبرزها الممارسات الدينية التي سادت المجتمع الغربي ، وبلغت من الطغيان ما جعل رد الفعل على الدين لدى أبنائه غير محدود ، فتجاوزوا الحد باتجاه الضد ، وحُوربت الكنيسة باعتبارها المسؤولة عن ذلك (٢) .

ونتيجة لهذا الصراع ، وتلك المعركة ، وتحت وطأة الهيمنة والتسلط الديني ، ظهر دعاة المذهب العقلي فدعا (ديكارت) إلى تطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة . كما هاجم (سبينوزا) تعاليم الدين المسيحي هجوماً مباشراً وأنشأ مدرسة النقد التاريخي . فكان مصيره الحرق . ونشر (كوبرنيكوس) سنة ١٥٤٣م كتاباً أسماه : «حركات الأجرام السماوية» خالف فيه ما كانت عليه توجهات الكنيسة ، ومعتقد رجالها ، فحرّمت الكنيسة قراءته ونشره ، وكان (وليم جودين) قد أصدر كتاباً أسماه «العدالة السياسية» الذي ضمنه دعوة علمانية صريحة (٣) .

وبذلك أصبح المجتمع الغربي «يفرّ من الدين كما يفرّ السجين إلى الفضاء المطلق» (٤) .

وأخيراً آل أمر الصراع بين الكنيسة والعلم في الغرب ، إلى صراع بين العلم والدين ، وشمل الأمر كل دين ، وانطلقت الثورة العلمانيّة لتجد لها مرتعاً خصباً في معظم بقاع العالم ، وعُممت أسباب الصراع ، مع تباين وجهتها ، بين دين وآخر ، وبين معتقد وآخر .

---

(١) محمد التكريتي ، نقد العلمانية ، ص ٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦-٢٢ (أورد الكاتب بعض النقولات عن تصرفات السلطة الدينية في الغرب) .

(٣) سفر الحوالي ، العلمانية ، ص ١٤٠ ، وكتاب : إنّها العلمانية لإبراهيم بن حماد ، ص ٢٩-٣٢ .

(٤) يوسف القرضاوي ، حتمية الحل الإسلامي ، ص ١١٩ .

يبدو أنّ حركة العلمانية في العالم الإسلامي أخذت طابع العداء للدين وللقيم الروحية وبالتالي الكراهية المطلقة للجماعات الإسلامية (١)، ويعزو بعض كتابها أن سبب فشلها في عالمنا الإسلامي عامةً، وفي وطننا العربي خاصة (الذي يُمثل قاعدة الأمة الإسلامية) إلى تعاظم التيار الإسلامي، واتساع قاعدته، وأن الحركات الإسلامية هي التي سلبت القاعدة الجماهيرية التي حظي بها التيار العلماني، وهذا ما حدا به لأن ينتقل من مشروع حضاري متكامل إلى واجهة عداء تخطط للإطاحة بالإسلام، ثم كان تفسيرهم للنجاح الذي حققه التيار الإسلامي إنّما هو ردة فعل نتجت عن الأوضاع القائمة، وفي أحيان أخرى كانت انتفاضة بعض الشعوب الإسلامية تعبيراً عن رفض (المشروع العلماني).

وعندما يُعزى أسباب تخلف الدول الإسلامية إلى هيمنة الفكر الإسلامي، الذي يفرض نفسه بقوة الشريعة والوحي (كما يقول العلمانيون)، يُمكن لأصحاب الفكر الإسلامي أن يسألوا العلمانيين: أين موقع تركيا - بعد سيادة التيار العلماني فيها - من نهضة الغرب الهائلة المتسارعة؟ وأين موقع تونس الدولة العربية - التي تبنت الاتجاه العلماني - في عهد الرئيس «بورقيبة» من تحقيق التقدم والازدهار إن كانت العلمانية تُعد من مقوماته؟

إنّ تركيا أول دولة من دول العالم الإسلامي اعتنقت المذهب العلماني الذي فرضه أتاتورك عليها، وجعلته من مواد دستور البلاد، ومع أن العلمانية تؤمن بحرية الإنسان كما يدعي أصحابها، فإذا بالقوانين العلمانية الجائرة تُفرض بالقوة على الشعب التركي - وهذا يخالف مبدأ الحرية في المجتمع الغربي العلماني - فتغير لباسهم ولغتهم وعاداتهم وأعرافهم، حتى أن الطالبات في المدارس أُجبرن قهراً على خلع الحجاب وترك غطاء الرأس. فلم يكن للحرية نصيب، ولا للتعبير عن الرأي فيها وجود، وكان إصرار الساسة على علمنة البلاد التي يحكمونها بقصد القضاء على الدين، وسلخ الأمة من فاعلية عقيدتها، ليسهل قيادتها وتسييرها، ولتكون الهيمنة المطلقة للساسة دون سواهم.

---

(١) عاطف علبي، من الفكر الحر إلى العلمنة، حيث أورد الكاتب كثيراً من الاتجاهات والشبهات التي تحوم حول الإسلام والجماعات الإسلامية، وفي بعض الأحيان يعبر عن الصراع الأيديولوجي بأنه: «معركة ضد التيار الإسلامي».

وفي الوقت الذي احتاجت فيه الأمة لأن تنهض بعد كبوتها ، بما تملك من مقومات أصالتها ، أعلن الرئيس التونسي السابق (بورقيبه) في خطاب له (١) ، كان من بين فقراته :

١ - إن في القرآن تناقضاً لم يعد يقبله العقل بين قول الله : ﴿قُلْ لَنْ يُصيبَنا إلاّ ما كَتَبَ اللهُ لنا﴾ (٢) وقوله : ﴿إنَّ اللهَ لا يُغيِّرُ ما بِقومٍ حتى يُغيِّرُوا ما بأنفُسِهِمْ﴾ (٣) .

٢ - الرسول محمد كان إنساناً بسيطاً يسافر كثيراً عبر الصحراء العربية ، ويستمع إلى الخرافات البسيطة السائدة في ذلك الوقت ، وقد نقل تلك الخرافات إلى القرآن ، مثال : عصا موسى ، وهذا شيء لا يقبله العقل بعد اكتشاف «باستور» وقصة أصحاب الكهف .

٣ - إن المسلمين وصلوا إلى تأليه محمد ، فهم دائماً يكررون (محمد صلى الله عليه وسلم) الله يصلي على محمد ...، وهكذا تأليه لمحمد .

٤ - الفطر في رمضان عمداً وبدون عذر شرعي مقبول إذا كان فيه مصلحة الدولة (٤) .

لقد أخفق الساسة العلمانيون في تحقيق العدالة والحرية بعد أن فُسح لهم المجال لأن يثبتوا وجودهم ، ويُحققوا لأمتنا أهدافها الحضارية . ولم تكتف الحركة العلمانية في العالم الإسلامي بعزل الدين عن الحياة ، بل أعلنت الحرب على العقيدة والشريعة ، وحاولت اقتلاع الجذور العقدية من عقول المسلمين . فهل يُمكن اعتبار العلمانية في عالمنا الإسلامي مشروعاً حضارياً ، أم أنها ثورة إلحادية ضد الدين وقيمه ؟!

---

(١) كان ذلك في الملتقى الدولي حول الثقافة الذاتية والوعي القومي الذي انعقد في تونس ، (آذار ١٩٧٤م) .

(٢) التوبة : ٥١ .

(٣) الرعد : ١١ .

(٤) محمد التكريتي ، نقد العلمانية ، ص ٥٦ (نقلاً عن جريدة الصباح التونسية ١١/١٢/١٩٧٤م).

ومما يُثير الغرابة عند المثقفين من أبناء الأمة ، الراغبين في الحفاظ على أصالتها ، ظهور بعض الاتجاهات العلمانية التي هدفت إلى تحقيق العصرنة والإنتماء الغربي ، وهذا ما ظهر في كتابات بعض روادها أمثال «سلامة موسى» الذي دعا لأن يكون الأدب والعادات على غرار ما عند الغرب ، وألّف كتاباً أسماه «اليوم والغد» صرّح فيه : «أنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب ، يجب علينا أن نخرج من آسيا ، وأن نلتحق بأوروبا »(١) . كذلك عزز طه حسين هذا الاتجاه بقوله : «فأما الآن وقد عرفنا تاريخنا وأحسسنا أنفسنا ، واستشعرنا العزة والكرامة واستيقنا أنه ليس بيننا وبين الأوروبيين فرق في الجوهر ، ولا في الطبع ، ولا في المزاج ، فإني لا أخاف على المصريين أن يفنوا في الأوروبيين » (٢) .

ولا شكّ في أن دعوة العلمنة في إطار هذا الاتجاه – الإلحادي أو التغريبي – الذي تفيأ ظلاله كثير ممن يدعي الإنتماء لأمتنا – كانت نتيجته على الأمة وليست لـه ، فهم (دخن) هذه الأمة الذين أشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الذي رواه الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – بقوله : (كان النّاس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني . فقلت : يا رسول الله ، إنّا كنّا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، قلت : وهل بعد ذلك الشرّ من خير ، قال : نعم ، وفيه دخن . قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر . قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة إلى أبواب جهنّم ، ومن أجابهم إليها قذفوه فيها . قلت : يا رسول الله صفهم لنا . قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) (٣) .

---

(١) محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر ٢٠٧/٢ ، (نقل المؤلف بعض تصريحات سلامة موسى ، انظرها بالتفصيل) .

(٢) طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) البخاري ، الصحيح ، كتاب المناقب ، حديث رقم (٣٦٠٦) ، وكتاب الفتن حديث رقم (٧٠٨٤) ؛ ومسلم ، الصحيح ، كتاب الإمارة حديث رقم (١٨٤٧) .

فإن كان لنشوء العلمانية في الغرب أسبابها الدينية ، فليس من الحق أن يمتد السبب ذاته ليشمل العالم الإسلامي . ولعلنا لا نحتاج لأن نزيل الشبهة لنقول أبلغ مما قاله الكاتب الفرنسي الطبيب (موريس بوكاي) : «علينا أن نتذكر أن عصر عظمة الإسلام أي في القرن الثاني عشر من العصر المسيحي ، وعلى حين كانت تُفرض القيود على التطور العلمي في بلداننا المسيحية ، أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات في الجامعات الإسلامية ... ولكم نحن مدينون للثقافة العربية في الرياضيات وعلم الفلك والفيزياء والجيولوجيا وعلم النبات والطب (ابن سينا) إلى غير ذلك . لقد اتخذ العلم لأول مرة صفة العالميّة في جامعات العصر الوسيط الإسلامية ، وفي ذلك العصر كان النّاس أكثر تأثراً بالروح الدينية ، مما هم عليه في عصرنا ، ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يكونوا في آن واحد مؤمنين وعلماء ، وكأنّ العلم الأخ التوأم للدين . لكم كان ينبغي على العلم ألاّ يكف عن أن يكون كذلك .

كانت البلاد المسيحية في القرون الوسطى في ركود وتزمت مطلق ، وكان توقف البحث العلمي فيها ، ليس بسبب التوراة والانجيل وإنّما ، وعلينا أن نكرر ذلك ، بأيدي هؤلاء الذين كانوا يدعون أنهم خدام التوارة والانجيل . وبعد عصر نهضة أوروبا كان رد الفعل الطبيعي أن يأخذ العلماء بثأرهم من منافسي الأمس ، وهذا التأثر مستمرّ حتى اليوم ، وكلما تقدمنا في امتلاك العلم ازدادت الحجج القائلة بوجود الخالق» (١) .

لقد كثرت تصريحات بعض مفكري الغرب عن الإسلام وعطائه الحضاري ، وسبقه العلمي ، ودوّنوا ذلك في مؤلفاتهم . يقول ليوبولد فايس : «ولسنا نبالغ إذا قلنا إنّ العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه لم يُدشّن في مدن أوروبا النّصرانية ، ولكن في المراكز الإسلامية ، في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة»(٢) .

إن اليابان كانت أمّة كسائر الأمم ، ثم ما لبثت أن أصبحت خلال ستين سنة من أعظم الأمم رقياً وحضارة وقوة ، حيث بدأت نهضتها سنة ١٨٦٨م . فهل انسلخت من بوذيتها ؟ . يقول الأمير شكيب أرسلان : «إنّ الماضي لا يزال عند اليابانيين مقدساً معظّماً في جميع طبقاتهم لأنه في هذا الماضي المقدس يجد اليابانيون جميع شعورهم

---

(١) موريس بوكاي ، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، ص ١٤٠ – ١٤٢ (بتصرّف يسير) .

(٢) محمد قطب ، مذاهب فكرية ، ص ٤٥٣ (أورد بعض أقوال الكتاب الغربيين ، راجعها ص ٤٥٢ – ٤٥٤) .

بقيمهم الحاضرة ، فتراهم يكافحون بوسائل المدنيّة الحديثة التامّة التي لا سبيل إلى الحياة بدونها في أيامنا هذه ، لكن ينبذون كل «تغرب» بمجرد ما يجدون أنفسهم في غنى عنه ، ويعودون مع اللذة إلى شعورهم القومي الخالص الذي به يعتقدون أنهم الأعلون . وهناك هياكل «شنتو» ومعابد «زن» والهياكل البوذية وهي مكّرمة معظّمة مخدومة بأشد ما يمكن من الحماسة الدينية والإيمان الثابت كما كانت منذ قرون . والحق أن الاحترام الشديد الذي يشعر به اليابانيون لقديمهم ولمعبوداتهم هو الذي قام عندهم حصناً منيعاً دون المبادىء الشعوبية ، والأفكار الشيوعية المضرة»(١) . وعلى الرغم من أن العقيدة البوذية تُعد من العقائد الباطلة لكنها كانت تُمثل رمزاً للحماس الديني عند الشعب الياباني ، وقاعدة لانطلاق حضارتهم . فالنهضة الحضاريّة الأصلية تستقي مقوماتها من تراثها باعتباره ضابطاً أخلاقياً .

لم تكن الأصالة من سمات العلمانية ، حيث بعدت عن منابع القيم ، ومرتكزات الأخلاق . ولهذا ساهم العلمانيون في سلب مقومات الأمة الإسلاميّة ، ودواعي أسباب وجودها ، وفي تنحيتها عن الشهود الحضاري الذي ميزها الله تبارك وتعالي به في قوله : **﴿وكذلكَ جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شُهداءَ على الناسِ ويكون الرّسولُ عَليكمُ شهيداً ﴾** (٢) ، فلا يمكن لمنصف أن ينكر التغيير الهائل الذي أحدثه الإسلام في طبيعة الحياة على أرض الجزيرة العربية ، مهبط الوحي ومهد الرسالة ، فعلى الرغم من تأثر حياة العرب بالطبيعة الجغرافية والمناخية ، وتأثير ذلك في أنماط حياتهم الاجتماعية والسياسية ، إلاّ انّ القيم التي حملتها الرسالة الجديدة أحدثت فاعلية في حياة الأفراد ، وتركت آثاراً إيجابية لا نظير لها في عطاءات الأمم . فمن غير المعقول أن يصبح البدوي الذي أظلته خيمةٌ وبَرٍ ومازجت أنفاسه رمال الصحراء ، سيد الحضارة ، وسبب رقيها واتساع آفاقها !!

إن حركة الإنسان مهما بلغ لا بد أن يعتريها الضعف البشري عندما تتجرد عن فاعلية الإيمان بالله ، وفاعلية أسبابه **﴿وإنْ يُريدوا أنْ يَخدعُوكَ فإنَّ حَسبكَ اللهُ هو الذي أيَّدكَ بنَصره وبالمؤمنينَ . وألّفَ بينَ قُلوبهم لو أنفقتَ ما في الأرضِ جميعاً ما ألّفتَ بين قُلوبِهمْ ولكنَّ اللهَ ألّف بَينهم إنّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ﴾** (٣) .

---

(١) محمد التكريتي ، نقد العلمانية ، ص ٥٤ – ٥٧ ، نقلاً عن : الأمير شكيب أرسلان ، «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم» .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

(٣) الأنفال : ٦٢ – ٦٣ .

لقد تأثرت حركة التعليم عند العرب قبل الإسلام بنمط حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وبالقيم التي حكمت الممارسات الاجتماعية للفرد والمجتمع ، والتي عكست صورة التخلف الحضاري للمجتمع آنذاك . ومن هنا فإن القرآن الكريم يقرر حقيقة النقلة الحضارية التي شهدها المجتمع العربي بعد أن منَّ الله عليه بمبعث الإسلام ، يقول تعالى : ﴿واذكُروا إذْ أنتُمْ قَليلٌ مُستضعفونَ في الأرضِ تَخافونَ أنْ يَتخطَّفكمُ الناسُ فآواكُمْ وأيَّدكمْ بنصرِه ورَزقكُم منَ الطيباتِ لعلَّكمْ تَشكُرونَ﴾(١) . وقال (وكُنتمْ على شَفا حُفرَةٍ منَ النارِ فأنقذكُم منها﴾ (٢) ، لهذا أدرك أفراد المجتمع العربي آنذاك حجم الانقلاب الحضاري الذي أحدثه الإسلام ، وتأثيره في حياتهم . قال (قتادة بن دعامة السدوسي) : «كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاهم عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعراه جلوداً ، وأبينه ضلالا . من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منه ردى في النار . يؤكلون ولا يأكلون . والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشرَّ منزلا منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد ، ووسّع به في الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب النّاس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه »(٣) .

الخاتمـــــة

ليس دفاعاً عن الإسلام - مع أنه مطلوب من كل مسلم غيور - ولا تهجماً على العلمانية - مع أنّه تحرير للفكر النابض ليستمدَّ وجوده من الوحي الإلهي - وإنّما هو التجردَ في موطن التحكيم ، وتحري العدالة في الحكم ، كما علّمنا الباري عزّ وجل بقوله : ﴿ ولا يَجرمنّكمْ شَنَآنُ قَومٍ على ألاّ تَعدلوا اعدلوا هو أقربُ للتقوى واتقوا اللهَ إنَّ الله خبيرٌ بما تَعملونَ﴾ (٤) فلم يكن موقف الإسلام يوماً معارضاً لانطلاقة الفكر ، ورقيِّ التفكير ، وفي القرآن الكريم كثير من الإشارات في ذلك ، قال تعالى : (إنَّ في خَلقِ السماواتِ والأرض ، واختلاف الليلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ) (٥) ودعا الباري عزّ وجل عباده إلى النظر والقياس (قُلْ سيروا في الأرض فانظروا كيفَ بدأ الخلقَ ...) (٦) ، ورفع العلم والعلماء (يَرفعُ اللهُ الذينَ آمنوا منكُمْ والذينَ أوتوا العلمَ دَرجاتٍ) (٧) . وفي أحاديث النّبي صلى الله عليه وسلم دلالة كبيرة على

---

(١) الأنفال : ٢٦ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن ، ٢-٣٠٠ .

(٤) المائدة : ٨ .

(٥) آل عمران : ١٩٠ .

(٦) العنكبوت : ٢٠ .

(٧) المجادلة : ١١ .

ذلك ، منها قوله (ص) : «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم ، وإنّ العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ... وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، ولم يورّثوا ديناراً ولا درهماً إنّما ورّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر» (١) .

لذا فإن تنحية الدين الإسلامي عن أداء دوره العلمي والحضاري ، يعني قتل روح الإبداع عند المسلمين ، خصوصاً وأن سير أعلام الأمة الإسلامية على مر القرون خير شاهد على أن الإسلام حرك الدافعية عند أتباعه نحو الرقي في سلم الحضارة ، وأحدث الإبداع والتميز ، وليست شهادة علماء الغرب ببعيدة عن ذلك ، قبل أن نشهد لهم .

ومن هنا ، فإن الأسباب التي دعت إلى ظهور العلمانية في الغرب ليس بالضرورة أن تكون ذات الأسباب التي كانت من وراء ظهورها في المجتمع الإسلامي . وقد لا يحكم بإطلاق على وجهة العلمانية في الشرق بأنها منافية للدين ، إذ تباينت فيها وجهات النظر بين مُبْعدٍ للدين معادٍ له ، وبين راغب فيه مع اعتقاده بأن قيادة الحضارة المعاصرة ينبغي أن يتصدرها العلم وتراكم المعرفة على أن تبقى القيم الدينية الجذور الرافدة والأساس الذي ترتكز عليه حضارة اليوم .

وأخيراً : فبين أن نقول كلمة حق ، أو كلمة باطل ، تباين معنى وتباعد قيم ، أما اللسان فهو يتحرك في كليهما ، وذات القلم يُمكن أن يخطّ حروفهما ، والحرف الذي يُظهر معالم الهدى هو ذات الحرف الذي يرسم معالم الباطل ، لكن شتّان بين يد علّته فأبت إلاّ أن تكون أمينة لدينها وأمتها ، وبين يدٍ دلّست وشطّت عن سواء الطريق . وهذا لا يعني أننا ندّعي لأنفسنا الحقّ المطلق ، ولغيرنا الباطل المحض ، لكن أملنا فيما نقول أن يكون ممّا يُرضي الحقّ سبحانه ، فهو قصدنا ، والهادي إلى سواء السبيل . وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبع هديه ونهجه إلى يوم الدين .

---

(١) الترمذي : السنن ، كتاب العلم ، حديث رقم (٢٦٤١) ، وابن ماجه ، السنن ، كتاب المقدمة ، حديث رقم (٢٢٣) ، وأحمد ، المسند ، باب مسند المكثرين ، حديث رقم (٧٣٧٩) .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

* * القرآن الكريم .
* * أحمد بن حنبل ، مسند الإمام أحمد ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٥م .
* * البخاري ، الصحيح ، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة ، ١٩٨٧م .
* * الترمذي ، سنن الترمذي ، دار إحياء التراث العربي ، ودار الفكر ، ١٩٨٣م .
* * ابن حجر ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، دار الريّان ، ١٩٨٨م .
* * أبو داود ، سنن أبي داود ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
* * الشاطبي ، إبراهيم بن موسى ، الموافقات في أصول الشريعة ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩١م .
* * ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، دار الجيل ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٨م .
* * مسلم ، صحيح مسلم ، دار احياء التراث العربي ، بيروت .

ثانياً المراجع :

* * إبراهيم بن حمّاد الريّس ، إنها العلمنة ، دار الغرب ، ط١ ، الرياض ، ١٤١٢هـ .
* * دونورو ا ، البيربايه ، من الفكر الحر إلى العلمنة ، ترجمة : عاطف علبي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٦م .
* * زكريا فايد ، العلمانية النشأة والأثر ، ط١ ، ١٩٨٨م ، الزهراء ، مدينة نصر .
* * سفر الحوالي ، العلمانية ، رسالة ماجستير في جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .
* * سلامة موسى ، اليوم والغد ، القاهرة ، ١٩٢٧م .
* * طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٤م .
* * عادل ظاهر ، الإسلام والعلمانية ، الإسلام والحداثة ، دار الساقي ، لندن ١٩٩٠م .
* * عاطف علبي ، من الفكر الحر إلى العلمنة ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٦م .
* * عماد الدين خليل ، تهافت العلمانية ، مؤسسة الرسالة ، ط ٦ ، ١٩٨٦م .
* * فؤاد زكريا ، الصحوة الإسلامية في ميزان العقل ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٨٩م .
* * محمد التكريتي ، نقد العلمانيّة ، دار المنطلق ، ط ١ ، دبي ، ١٩٩٤م .
* * محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر ، بيروت ، ١٩٧٠م .

* محمد قطب ، مذاهب فكريّة معاصرة ، دار الشروق ، ط ١ ، ١٩٨٣م .
* موريس بوكاي ، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، دار المعارف الحديثة ، ط ٤ ، بيروت .
* محمد عمارة ، العلمانية ونهضتها الحديثة ، دار الشروق ، ط ٢ ، ١٩٨٦م .
* يوسف القرضاوي ، حتميّة الحل الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٤م .
* يوسف القرضاوي ، الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه ، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٩٠م .

ثالثاً : المعاجم والقواميس

* دائرة المعارف البريطانية .
* قاموس اكسفورد . وقاموس المورد .